الفصل الأول

لماذا لغة عالمية؟
Why A Global Language ?

إن عنواناً كهذا لابد أن تجده في آلاف المجلات والجرائد في السنوات الأخيرة. فعبارة "اللغة الإنجليزية تحكم العالم" مثال واقعي لذلك، إذ تقدم مثل هذه العبارة سيناريو غير متكامل حول جعل اللغة عالمية في انتشارها، وترجيح استمرار ها في التجديد. وهذه العبارة وردت ضمن مقال صحفي تميز بالمهارة والذكاء لأنه يقوّي الانطباعات الأولية، وقد وردت ضمن السياق التالي حول تقلص الدور البريطاني في هونج كونج: " قد يتلاشى ظل الإمبراطورية البريطانية من هونج كونج نهائيا، ولكن اللغة التي تجوب العالم من الجزيرة الملكية في بنجلادش إلى بيلايز، ومن لاس فيغاس إلى لاهور أصبحت هي اللغة التداولية المشتركة "[1]. واستمرت مثل هذ التنبؤات حول الألفية الجديدة والتوقعات على نفس الوتيرة. وعند البحث في الجرائد والمجلات عن المواضيع المتعلقة باللغة الإنجليزية وتماشيها مع العولمة، يجد المرء وفرة من ناحية التنوع والتطور، ويرى زخم الإثباتات التي تطرح بشكلها الجديد، وتزامن ذلك أيضا مع برامج التلفاز

(١) جريدة (Globe and Mail)، تورنتو ١٢ يوليو ١٩٩٧م.

والمسلسلات التي أصبحت تصل إلى المشاهدين في جميع أنحاء العالم[٢]. وبالطبع، مع بداية القرن الجديد أصبح هذا الموضوع (موضوع عالمية اللغة) يصل إلى الملايين، وفتح الباب أمام الكثير من التوقعات، بطريقة لم تكن موجودة في القرون السابقة.

لقد أصبح هذا النوع من المقولات واضحاً للغاية لكثير من الناس، وربما أصبح من المسلمات التي تؤخذ دون إعادة التفكير فيها. ولذلك، فإن الناس يقولون إن اللغة الإنجليزية هي بالطبع لغة عالمية، وهذا ما يقوله السياسيون عبر التلفاز من جميع أنحاء العالم. فأينما تسافر تجد علامات وشعارات إعلانية باللغة الإنجليزية. وفي أي وقت تدخل فيه أي فندق أو مطعم في أي دولة أجنبية ستجد أنهم يفهمون اللغة الإنجليزية، وستجد أيضاً أن قائمة للطعام كتبت باللغة الإنجليزية. وإن كان هناك أي شيء يجب أن تعرفه في الأخبار ستجده مكتوب باللغة الإنجليزية. إن العناوين الرئيسة للأخبار هي دائما باللغة الإنجليزية.

إذا، اللغة الإنجليزية هي أخبار بحد ذاتها، حيث إن الأخبار تذاع باللغة الإنجليزية في العديد من الدول. ولكن هذه جميعا لا يمكن أن تفسر الظاهرة بشكل كبير. ماذا يعني هذا بالضبط؟ هل يعني هذا أن الناس جيمعا يتحدثون اللغة الإنجليزية؟ هذا بالطبع ليس صحيحاً كما سنرى. هل يعني هذا أن جميع الدول تعتبر اللغة الإنجليزية هي اللغة الأساسية؟ حتما، هذا ليس صحيحاً كما سنرى .إذاً ماذا يعني عندما تقول بأن لغة معينة أصبحت لغة عالمية؟ ولماذا اللغة الإنجليزية هي اللغة التي أحتلت هذه المكانة؟ وكيف برز الوضع؟ وهل يمكن أن يتغير؟ وهل مجرد كون لغة ما عالمية الآن، سيجعلها تبقى إلى الأبد؟

---

(٢) Ryan ١٩٩٩م.

هذه الأسئلة المشوقة هي التي يجب أن تبحث، سواء أكانت لغتنا الأولى هي الإنجليزية أم لا. إذا كانت اللغة الإنجليزية هي لغتك الأم، فإن مشاعرك لن تتأثر حول انتشار اللغة الإنجليزية حول العالم، ويمكن أن تشعر بالفخر كون لغتك هي اللغة الناجحة حول العالم، ولكن سيحتار بعض الشيء حول شعورك بالفخر عندما تجد أن الناس في الدول الأخرى قد لا يستخدمون اللغة الإنجليزية بنفس الطريقة التي تستخدمها أنت، بل يغيرونها لتتلاءم مع طريقة كلامهم. نحن حساسون حول استخدام (أو كثيراً ما يقال، سوء استعمال) لغتنا، فالشعور الداخلي للمتحدثين الأصليين ربما يجب علينا التساؤل عن صحته من عدمها. وبالطبع فإن أحد العواقب التي يمكن التنبؤ بها عندما تصبح اللغة لغة عالمية هي أن اللغة لم تعد تنتسب إلى أحد؛ أو بالأحرى فإن كل شخص يتعلمها أو ينتسب لها أو ربما (مشارك فيها) له الحق في استخدامها بالطريقة التي يُفضلها. فهذه الحقيقة وحدها تجعل الناس يشعرون بالقلق والاستياء الغامض. لذا نجد أن عبارة "انظروا ماذا فعله الأمريكيون باللغة الإنجليزية" عنواناً منتشراً في المقالات الصحفية البريطانية. ولكن ممكن أن تسمع هذه التعليقات في الولايات المتحدة عندما يتناقش الناس حول التغييرات المثيرة للانتباه في اللغة الإنجليزية والبارزة في جميع أنحاء العالم.

وحتى إن لم تكن اللغة الإنجليزية هي لغتك الأم فإنك ستبقى تشعر ببعض التشويش في مشاعرك اتجاه اللغة. فيمكن أن تشعر بأهمية تعلم اللغة؛ لأنك تعلم بأنها سوف تتيح لك التواصل مع أكثر الناس في أنحاء العالم؛ ولكنك تعلم في نفس الوقت بأنك تحتاج إلى جهد كبير لتتقنها .وسوف تشعر بالفخر عندما تحقق التطور الذي تريده في اللغة وفي تميّزك بامتلاك كمية كبيرة من المفردات والأفكار. ولكنك ستشعر أيضاً بأن المتحدثين الرسميين للغة يسبقونك بمراحل في إتقان اللغة.

ومن جهة أخرى، إن كنت أنت تعيش في بلد بدأت لغته بالانهيار؛ بسبب تقدم وانتشار اللغة الإنجليزية فقد يجعلك ذلك تشعر ببعض من الحسد أو الاستياء أو الغضب، ويمكن أن ترفض بقوه المؤثرات الثقافية والطرق التعبيرية والشعبية لتلك اللغة.

وتعتبر هذه المشاعر مشاعر طبيعية، وسوف تظهر بشكل طبيعي بصرف النظر عن اللغة التي يراد لها أن تكون لغة عالمية. إن هذه المشاعر هي التي تصنع المخاوف سواء أكانت حقيقية أم خيالية، وهذه المخاوف هي التي تؤدي إلى النزاعات وتنشأ النزاعات؛ بسبب الحدود اللغوية، والإضرابات، والثورات، وكذلك الاقتتال؛ وكل هذه الحقائق تحدث بسبب اللغة في العديد من الدول. ويوجد ملايين المشكلات السياسية والدراسية والاقتصادية والقانونية التي تنشأ يومياً؛ بسبب اختلاف اللغة. وعادة ما تكون اللغة مادة (أو حبرا) للإعلام، فكلما اقتربت اللغة من أن تكون لغة عالمية كانت أهميتها للإعلام أكبر. وبعد هذا كله، كيف يمكن للغة أن تأخذ مكانها بوصفها لغة عالمية؟

ما هي اللغة العالمية؟

تحقق اللغة (أي لغة) مكانة "العالمية الحقيقية" عندما تتمكن من لعب دور متميز، ومعروف في كل دولة. ويبدو هذا وكأنه توضيح لفكرة واضحة سلفا، ولكنه ليس كذلك. ففكرة "الدور المتميز" تنطوي على جوانب كثيرة. ودورُ كهذا سيكون أكثر وضوحاً في الدول التي يكون فيها عدد كبير من متحدثي اللغة على أنها لغتهم الأم. وكون الحديث هنا عن اللغة الإنجليزية فهذا يعني أن الدول المقصودة تشمل: أمريكا وبريطانيا وكندا وإيرلندا ونيوزلندا وجنوب أفريقيا ودول جزر البحر الكاريبي

ومجموعة من المقاطعات في دول أخرى. وعلى أية حال، عندما يتحدث غالبية السكان في بلد ما اللغة الأم (كاللغة الأسبانية التي يتحدثها سكان أكثر من عشرين دولة وأكثرها في أمريكا اللاتينية) فهذا يعني أن اللغة الوافدة لا يمكن أن تأخذ الطابع العالمي. ولكن إن أرادت اللغة أن تصل إلى العالمية فيجب أن تستخدم في دول أخرى من غير متحدثيها الأصليين، ويجب أن تعطى حيِّزاً خاصاً بها في مجتمعاتهم، حتى وإن كان لا يوجد متحدثين أصليين لهذه اللغة.

وهناك طريقتان أساسيتان يمكن أن يتم بهما جعل اللغة عالمية؛ أولاً: يمكن أن تكون اللغة لغة رسمية للدولة إذا استخدمت كوسيلة للتواصل الرسمي في المجالات الحكومية كالمحاكم والإعلام والنظام التعليمي. وهنا يصبح تعليم هذه اللغة منذ الصغر مطلباً أساسياً للتواصل بين المجموعات المختلفة.

ولغة كهذه يمكن أن توصف على أنها اللغة الثانية في الدولة؛ لأنها تبدو لغة مكملة للغة الأم أو اللغة الأصلية. فاليوم يظهر أن أكبر لغة رسمية أصبح لها دور فعال في الدول الأخرى هي اللغة الإنجليزية التي انتشرت لتصبح جزءاً خاصاً لأكثر من سبعين دولة، مثل دولة غانا ونيجيريا والهند وسنغافورا وفانواتا (سنورد القائمة الكاملة للدول في الفصل الثاني). وهذا المسار الناجح الذي عبرت من خلاله الإنجليزية أكثر من اللغات الأخرى كالفرنسية والألمانية والأسبانية والروسية واللغة العربية التي تطورت من ناحية الاستخدام الرسمي فقط. فالقرارات السياسية تجاه هذه الأمور هي التي وضعت الأمور في نصابها مثل قرار حكومة رواندا في عام ١٩٩٦م حول استخدام للغة الإنجليزية لغة رسمية للبلاد.

وثانياً: يمكن أن تُعطى أولوية للغة ما في التدريس، أكثر من اللغات الأجنبية وحتى إن لم يكن لهذه اللغة استخدام رسمي. فبهذه الطريق ستصبح اللغة المُفضلة عند

الأطفال في المدرسة وأكثر لغة متوفرة للكبار الذين لم يتعلموها لسبب معين أو قاموا بتعلمها بشكل كبير في أيامهم الأولى في الدراسة. فعلى سبيل المثال، استمرت اللغة الروسية في الاستخدام في دول الاتحاد السوفيتي السابق لعدة سنوات. ولغة الماندرين الصينية المنتشرة في جنوب شرق آسيا .لكن اللغة الإنجليزية هي الأكثر تدريساً في بعض هذه الدول على أنها لغة ثانية لأكثر من ١٠٠ دولة مثل الصين وروسيا وألمانيا وأسبانيا ومصر والبرازيل، وفي معظم هذه الدول تبرز اللغة الإنجليزية على أنها اللغة الأجنبية الأولى الأكثر استخداماً في المدارس، وهو ما جعلها تكتسح اللغات الأخرى في هذا المجال. في عام ١٩٩٦م، على سبيل المثال، استبدلت اللغة الفرنسية بالإنجليزية لتكون اللغة الأجنبية الأولى في المدارس في الجزائر (علما أن الجزائر كانت مستعمرة فرنسية سابقة). ووفقا لهذه المنطلقات، فإنه من المهم أن نؤكد هنا بأنه يوجد عدة طرق لجعل لغة ما لغة رسمية ؛ حيث يمكن أن تكون اللغة الرسمية الوحيدة في الدولة أو يمكن أن تتشارك مع لغة أخرى. ويمكن كذلك أن تكون لغة شبة رسمية وتستخدم في مجالات معينة، ثم تتدرج ضمن لغات أخرى حتى تصل إلى الحالة الرسمية. وهناك دول عدة تقّر وبشكل رسمي وجود لغة رسمية في الدولة، مثل الهند، فالبعض لا يعطيها اهتماماً ولا يذكرون هذا الأمر مثل بريطانيا. ولكن في دول أخرى هناك جدل ملحوظ حول وضع اللغة وهل يجب أن يتعامل معها بشكل رسمي، مثل الولايات المتحدة الأمريكية (انظر الفصل الخامس).

وبنفس الطريقة تقريبا، هناك الكثير من الأسباب المختلفة التي تحدد اختيار اللغة الأجنبية المفضلة، والتي قد تتضمن التقاليد التاريخية، والمصلحة السياسية، والرغبة الإعلامية، والتواصل التقني والثقافي. وحتى بعد اختيار لغة محددة، يمكن لهذه اللغة أن تختلف بشكل كبير. ويعتمد ذلك أيضا على مدى استعداد الدولة

ومؤسساتها المالية لإعطاء التمويل اللازم للطريقة التي سيتم بها تعليم اللغة الأجنبية. وإذا وُجِد التمويل اللازم لتعليم اللغة والوصول إليها من خلال الإعلام والمكتبات والمدارس ومعاهد التعليم العالي، فسيكون هناك ازدياد في عدد المعلمين الأكفاء لتدريس هذه اللغة. كما سيتوفر أشرطة سماعية ومرئية وكتب وأجهزة حاسوبية وأنظمة الاتصال وجميع التقنيات التعليمية، ليتم تعليم اللغة بالشكل المطلوب. ولا شك أنه يوجد في العديد من الدول عجز حكومي أو نقص في التمويل لدعم التدريس وهذا ما أدى إلى وقف التطور الدراسي والوصول إلى الأهداف الدراسية في الدولة .

إذاً، أصبحت طريقة التفريق بين اللغة الأولى والثانوية والأجنبية طريقة عملية منهجية، ولكن يجب أن نكون حذرين حول أخذ هذه التفسيرات ببساطة . وعلى وجه التحديد، يجب أن نبتعد عن اعتبار التفريق بين اللغة الثانوية واللغة الأجنبية يرتكز على مدى الطلاقة في التحدث بلغة معينة أو القدرة على النطق السليم أو ما شابه ذلك ؛ حيث إنه – وعلى الرغم من أننا نتوقع من الدول التي تستخدم اللغة الإنجليزية بوصفها بوصفها لغة ثانوية رسمية أن تتحدث أفضل من الدول التي لا تستخدم هذه اللغة على الإطلاق– إلا أن النظرة الحقيقية لا تفترض بأن يكون ذلك صحيحاً. يجب علينا أن نلاحظ– على سبيل المثال– بأن مدى إتقان وطلاقة اللغة الإنجليزية في الدول الاسكندنافية وهولندا يعد عاليا ؛ ولكن يجب أن نكون حذرين عند التفريق بين المتحدثين الأصليين لهذه اللغة والمتحدثين لها اللذين تعلموها بوصفها لغة تداولية، خصوصا أن الأطفال بدأو يتعلمون اللغة من أباءهم اللذين تعلموها بوصفها لغة أجنبية.

ومنذ عدة أعوام، التقيت بمستثمر نفطي ألماني وزوجته الماليزية في دولة الإمارات العربية المتحدة، واللذان كانا يتحدثان عبر لغة مشتركة بينهما وهي اللغة

الإنجليزية. وقد أخبراني بأنهما اتخذا قراراً بأن ابنهما المولود سيعلمونه اللغة الإنجليزية على أنها لغته الأم. فها هو الطفل قد تعلم اللغة الإنجليزية الأجنبية على أنها لغته الأم. وهناك الآن قصص كثيرة كهذه منتشرة حول العالم، وهو ما يجعلنا نتساءل حول مدى الإضافة التي سيقدمها هؤلاء الأطفال للغة الإنجليزية عندما يكبرون. هل سيصبحون أشخاصا مهمين كونهم أتقنوا هذه اللغة؟ وهل ستكون توقعاتهم حول هذه اللغة مختلفة عن نظرائهم من أبناء المتحدثين الأصليين للغة؟

هذه النقاط يمكن أن تُضاف إلى تعقيدات وإرهاصات اللغة الإنجليزية التي في وقتنا الحالي؛ بيد أنها لا تغير من الوضع الأساسي لانتشار هذه اللغة. ووفقا للتصنيفات التي تطرقنا لها آنفا – اللغة الأولى، واللغة الثانية (أو الثانوية)، واللغة الأجنبية – فإن اللغة العالمية بلا شك هي التي تُستخدم أكثر من أي لغة أخرى؛ وقد وصلت اللغة الإنجليزية إلى هذه المكانة. ولذا فإن الحقائق والمعطيات التي سنعرضها في الفصل الثاني، تشير إلى أن متحدثي اللغة الإنجليزية بطلاقة يشكلون رُبع سكان العالم أي ١,٥ بليون نسمة، وهذه الأرقام تزداد باستمرار في أوائل القرن الحالي. ولا يمكن لأي لغة في العالم أن تصل إلى هذه النسبة، حتى اللغة الصينية التي تُستخدم في ثماني دول مختلفة، وبلهجات متباينة ولكنها تجتمع هذه اللهجات في طريقة الكتابة فقط، وقد وصل عدد المتحدثين بها إلى ما يقارب ١,١ مليون نسمة.

ما الذي يجعل اللغة عالمية؟

إن السبب في كون اللغة عالمية لا يعود فقط إلى زيادة عدد المتحدثين بها، بل يرتبط أكثر بمن هم أولئك المتحدثون. لقد أصبحت اللاتينية لغةً عالمية من خلال الإمبراطورية الرومانية، ولكن ذلك لا يعني أن الرومانيين كانوا أكثر عدداً من الذين

استعبدوا، بل كانوا - ببساطة- أكثر قوةً. وبعد ذلك، عندما ضعفت القوة العسكرية الرومانية، بقيت اللاتينية قرابة ألف عام وهي بوصفها بوصفها لغة تعليمٍ عالمية، ويعزى الثناء في ذلك للقوة المتنوعة للكاثولوكية الرومانية.

وتوجد ارتباطاتٌ وثيقةٌ بين القوة في المجالات الاقتصادية والتقنية الثقافية وهيمنة اللغة، وتصبح هذه العلاقة أكثر وضوحا عندما نستعرض تاريخ الإنجليزية (انظر الفصول ٢و ٤). وبدون وجود قاعدة متينة ومتعددة، فلا يمكن للغة أن تحرز تقدماً لتصبح لغة للتواصل العالمي. ولا يوجد في الحقيقة، استقلال حقيقي للغة بدون متحدثيها، إذ إن اللغة توجد فقط في عقول وأفواه وآذان وأيدي وأعين مستخدميها. وعندما ينجحون على الصعيد الدولي، فإن لغتهم تنجح كذلك، وعندما يفشلون، فإن لغتهم تفشل معهم.

وقد تكون هذه النقطة واضحة، ولكنها تحتاج إلى أن توضح من البداية ؛ وذلك لأنه - على مر السنين- نمت العديد من الاعتقادات المضللة حول ماذا ينبغي للغة لكي تصبح ناجحة عالمياً. ومن الشائع جداً سماع الناس يدّعون أن اللغة هي نموذج لا مثيل له، عند الحديث عن الصفات الجمالية الملحوظة، أو وضوح التعابير الاصطلاحية أو القوة الأدبية أو المقام الديني .إن اللغة العبرية واللغة اللاتينية واللغة العربية واللغة الفرنسية من بين هذه اللغات التي قد أصبحت عظيمة في أوقات مختلفة على صعيد هذه التصنيفات، واللغة الإنجليزية ليست مستثناةً عنها. وعلى سبيل المثال، لابد من وجود شيءٍ جميلٍ أو منطقي أصلاً في بنية اللغة الإنجليزية، وهذا المثال لكي نشرح سبب انتشار استخدامها بشكل كبير الآن. وقد اقترح البعض أنها تحتوي على قواعد لغويةٍ أقل من غيرها من اللغات. فالإنجليزية لا تحتوي على الكثير من النهايات في كلماتها ولا تحتاج إلى تذكر الفرق بين الجنس المذكر أو المؤنث أو المحايد، فلذلك لابد من أنها

سهلة التعلم. وفي عام ١٨٤٨م، كتب أحد الكتاب في "نشرة النادي الثقافي الدورية البريطانية:"يبدو أن المنظمة تبنت لغتنا الأم لتصبح لغة العالم بسبب سهولة بنيتها القواعدية، وندرة تصريفاتها، وإهمالها الشديد لتمييزات الجنس ماعدا الأجناس الطبيعية، وبساطتها ودقتها في نهاية كلماتها وأفعالها المساعدة، وعباراتها المفعمة بالفخامة والحماس والغزارة".

وعادة ما يساء فهم مثل هذه التصنيفات؛ فقد كانت اللاتينية لغة عالمية ضخمةً ذات مرة على الرغم من تصريف نهايات كلماتها العديدة، وفروقات الجنس فيها. وقد كانت اللغة الفرنسية مثلها أيضاً على الرغم من تذكير أعلامها وتأنيثها، ومع ذلك أصبحت التصريفات كثيرة في اللغة الإغريقية واللغة العربية واللغة الإسبانية واللغة الروسية على مستويات مختلفة من الأماكن والأزمنة، ثم أن سهولة التعلم ليس لها ارتباط مباشر بها. ويتعلم الأطفال من جميع الثقافات بأن يتحدثوا لغتهم الاصلية في نفس المدة الزمنية، بغض النظر عن الاختلافات القواعدية للغاتهم .وأما بالنسبة لفكرة أنه ليس للغة الإنجليزية قواعد نحوية- وهو ادعاء منشأه الاشخاص اللذين يتعلمونها بوصفها لغة أجنبية- فإنه يمكن أن تدحض هذه الفكرة من خلال نظرة سريعة في أي من المراجع الكبيرة للقواعد في القرن العشرين. فالقواعد الشاملة للغة الإنجليزية تحتوي على سبيل المثال على ١٨٠٠ صفحة وما يقارب ٣٥٠٠ قاعدة نحوية تتطلب شرحاً نحويا.

وهذا لا يعني أن اللغة قد تحتوي على خواص معينة تجعل من اللغة متألقة عالمياً. فعلى سبيل المثال، يعلق المتعلمون أحيانا على المفردات المتشابهة في اللغة الإنجليزية التي تشتق من طريقة استعارة اللغة الإنجليزية لآلاف الكلمات الجديدة من اللغات التي قد كانت على اتصال بها على مر القرون. إن ترحيب اللغة الإنجليزية

بالمفردات الأجنبية يضعها على النقيض من بعض اللغات الأخرى (كاللغة الفرنسية بشكلٍ ملحوظ) التي حاولت أن تبقي هذه المفردات الدخيلة خارج لغاتها، وذلك أعطى للغة الإنجليزية سمة الشيوع العالمي حيث يراه العديدون كميزة لتكون لغةً عالمية. ومن وجهة نظر معجمية، تعتبر اللغة الإنجليزية في الحقيقة ذات طابع رومانسي أكثر من اللغة الألمانية. وقد أبديت تعليقات عن الجوانب البنيوية الأخرى أيضاً كغياب نظام اختلافات شفرة الطبقة الاجتماعية في قواعد اللغة الإنجليزية حيث يمكن أن يجعل اللغة تبدو أكثر ديموقراطية لمن يتحدثون لغة أخرى (مثل اليابانية) التي تعبر عن نظام معقد من فئات العلاقات. ولكن هذه الخصال المتألقة المفترضة هي ثانوية وتحتاج إلى أن تقاس مع المميزات اللغوية التي يمكن أن تبدو غير مرغوبة كي تكون اللغة عالمية مثل حالة تراكم الأفعال الشاذة واختلاف نظام تهجئتها في اللغة الإنجليزية.

ولا تصبح اللغة عالمية بسبب خصائصها البنيوية المعقدة، أو بسبب حجم مفرداتها، أو لأنها كانت وسيلة نقل الأدب الرئيسي في الماضي، أو لأنها تداخلت مع ثقافة عظيمة، أودين عظيم ذات مرة. وهذه هي جميع الحقائق التي يمكن أن تحفز شخص ما لتعلم لغة. وبالطبع لا تضمن هذه الخصائص - سواء منفردة، أو مجتمعة - انتشار اللغة عالميا. وفي الواقع، لا يمكن لحقائق كهذه حتى أن تضمن بقاء اللغة حية - كما هو موضح في حالة اللغة اللاتينية التي يتعلمها اليوم مثقفون ومتدينون قلة فقط بوصفها لغة كلاسيكية. وبشكل أوضح، فإن الخصائص البنيوية المزعجة (كالتهجئة الصعبة) لا تمنع اللغة من تحقيق مكانة عالمية أيضا.

وقد أصبحت اللغة -على مر التاريخ- لغة عالمية بسبب رئيسي واحد: وهو قوة المتحدثين بها - خاصة القوة السياسية والعسكرية. ومن خلال تتبع التاريخ، فإن اللغة الإغريقية كانت لغة الاتصال العالمية في الشرق الأوسط لأكثر من ٢٠٠٠ سنة

مضت ؛ ليست بسبب نظريات أفلاطون وأرسطو، ولكن بسبب قوة السيوف والرماح التي استخدمتها جيوش الإسكندر الأكبر. لماذا أصبحت اللاتينية معروفة عبر أوروبا؟ لنسأل فيالق الإمبراطورية الرومانية! ولماذا أصبحت العربية متحدثة بشكل واسع عبر إفريقيا الشمالية والشرق الأوسط؟ لنتبع انتشار الإسلام الذي حملته جيوش الفتوحات منذ القرن الثامن. ولماذا وجدت اللغة الاسبانية والبرتغالية والفرنسية طريقها إلى أمريكا الشمالية والجنوبية وإفريقيا والشرق البعيد؟ لنقرأ السياسات الاستعمارية لملوك وملكات النهضة الأوروبية، وطريقة هذه السياسات القاسية التي اتبعتها الجيوش والأسلحة البحرية عبر جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك. إن تاريخ عالمية اللغة يمكن أن نتتبع أثره مع إرساليات الجيوش، والبحارة. واللغة الإنجليزية -كما سنرى في الفصل الثاني- لم تكن إستثناءا.

بيد أن هيمنة اللغة عالميا، ليست فقط النتيجة الوحيدة للقوة العسكرية ؛إذ لا نحتاج فقط إلى أمةٍ قوية عسكرياً كي تنتشر اللغة، بل نحتاج إلى أمة قوية اقتصادياً للحفاظ عليها وتوسيع نطاقها. وقد كانت هذه القضية دائما هي القضية المنشودة، ولكنها أصبحت حقيقةً واقعية في القرنين التاسع عشر والثامن عشر مع بداية التطورات الاقتصادية على الصعيد العالمي. وقد دعم ذلك ظهور القوة الصناعية، وتقنيات الاتصال الجديدة مثل التلغراف، والهاتف، والمذياع، وظهور المنظمات متعددة الاستثمارات في أكثر من بلد بشكل هائل. وأدى ازدياد التنافس الصناعي والتنافس في قطاع الأعمال إلى انفجار التسويق والدعاية عالميا. ووصلت قوة الصحافة إلى مستويات لم يسبقها أحد من قبل مع ظهور الإعلام الإذاعي وقدرته على عبور الحدود العالمية بسهولة انتقال الموجات الكهرومغناطيسية. وقد وفرت التقنية مجموعة من الصناعات الترفيهية الجديدة التي أحدثت تأثير عالمي كبير خصوصا الأفلام

والتسجيلات الصوتية. وهذا نتج عنه التنافس والسباق لإحراز التقدم في العلوم والتقنية وهو ما شجع البحث والتوسع في التعليم العالي على مستوى العالم.

وعندما تكون اللغة (أي لغة) في وسط مركز انفجار للنشاط العالمي كهذا، فإنها سوف تجد نفسها فجأة في مستوى عالمي. واللغة الإنجليزية (كما سنرى في الفصلين ٣، ٤) كانت "في المكان المناسب في الوقت المناسب". مع بداية القرن التاسع عشر، أصبحت بريطانيا الدولة القائدة في الصناعة والتجارة؛ ومع نهاية ذلك القرن، أصبح تعداد سكان الولايات المتحدة الأمريكية ما يقارب ١٠٠مليون، أي أكبر من أي دولة من دول أوروبا الغربية، وكان اقتصادها الأكثر إنتاجا والأسرع نمواً في العالم. وكانت بريطانيا هي القوة الإمبريالية المهيمنة التي أرسلت لغتها الإنجليزية إلى كل زاوية من زوايا العالم. وبذلك كانت الإنجليزية "في المكان الذي لا تغيب فيه الشمس أبدا." وخلال القرن العشرين، كان هذا العالم مستمرا ورائجا وتحكمه يد واحدة هي السيادة الاقتصادية للقوة العظمى الجديدة- الولايات المتحدة الأمريكية. وعنها أصبحت القوة الاقتصادية العظمى، هي القوة الرئيسية المسيطرة بدلا من القوة السياسية ؛ وأصبحت للغة التي كانت تسير خلف الدولار الأمريكي هي اللغة الإنجليزية.

لماذا نحتاج إلى لغة عالمية؟

لقد لعبت الترجمة دوراً رئيساً (مع أنها في أغلب الأحيان بطريقة غير معروفة) في التفاعل والتواصل بين المجتمعات لآلاف السنين. وعندما يلتقي الملوك والسفراء على الصعيد العالمي، فإنهم دائما يصطحبون المترجمين. ولكن هنالك حدوداً فيما يتعلق بهذا الدور؛ فكلما امتزج المجتمع بشكل لغوي أكثر، قل اعتماده على الأفراد لتأكيد الاتصال بين المجموعات المختلفة. وفي المجتمعات التي تكون فيها لغتان أو ثلاث لغات

تستخدم للتواصل، فإن وجود لغتان للتحدث (أو ثلاث لغات) ممكن لمعظم الأطفال الذين يمكنهم اكتساب أكثر من لغة بسهولة بدون وعي ذاتي. ولكن في المجتمعات التي توجد فيها عدة لغات تستخدم في التواصل، كما في أفريقيا وشمال آسيا الشرقي، لا ينطبق حل كهذا بسهولة.

ولمواجهة هذه المشكلة، حاولت المجتمعات إيجاد لغة مشتركة أو "لغة متداولة للتواصل". وفي بعض الأحيان، عندما تبدأ المجتمعات بالتجارة فيما بينها، تتواصل باستخدام لغة متبناة بسيطة تعرف باسم الهجين والتي تجمع بين عناصر من لغاتهم المختلفة. وقد نشأ العديد من اللغات الهجينة من خلال معاهدات تعود بشكل رسمي إلى القوى الاستعمارية الأوروبية التي استخدمتها بوصفها بوصفها لغة للتواصل المشترك مع أهل البلاد الأصليين. فعلى سبيل المثال، اللغة الإنجليزية الهجينة لإفريقيا الغربية والتي تستخدم على نطاق واسع بين عدة مجموعات عرقية على طول ساحل أفريقيا الغربي. وفي بعض الأحيان، تبرز اللغة الأصلية بوصفها لغة مشتركة – عادة تكون لغة العرق الأكثر قوة في المنطقة – كما في حالة لغة الماندرين الصينية. ويتم بعد ذلك تعلم المجموعات الأخرى هذه اللغة بنجاحات مختلفة، بحيث تصبح نوعاً ما ثنائية اللغة. ولكن في أغلب الأحيان، تقبل اللغة من خارج المجتمع كاللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية بسبب تأثير القوة الأجنبية السياسية أو الاقتصادية أو الدينية.

والتوسع الجغرافي لإمكانية استخدام اللغة المشتركة محكوم بشكل مطلق بالعوامل السياسية. وتتوسع العديد من اللغات المشتركة ضمن نطاقات صغيرة – بين مجموعات عرقية قليلة في جزء وحيد من الدولة – أو من خلال ارتباط التجارة السكانية بعدة دولٍ فقط كما في حالة إفريقيا الغربية. وعلى النقيض، فإن اللغة اللاتينية كانت لغة مشتركة خلال الإمبراطورية الرومانية – على الأقل على مستوى الحكومة

وعلى مستوى قلة من السكان الأصليين الذين أصبحوا جزءاً من نسيج السلطة. وفي الوقت الحديث، بدأت اللغات السواحيلية والعربية والأسبانية والفرنسية والإنجليزية والهندية والبرتغالية والعديد من اللغات الأخرى تلعب دوراً عالمياً رئيسياً بوصفها لغة مشتركة في مناطق واسعة من العالم.

إن إمكانية قيام اللغة التداولية المشتركة قد يحتاج إليها العالم بأسره، وربما تبرز بقوة في القرن الواحد والعشرين الحالي، وقد بدأ ذلك التوجه في الخمسينيات من القرن الماضي في المنتدى العالمي الرئيس للاتصال السياسي-الأمم المتحدة- في عام ١٩٤٥م. ومنذ ذلك الوقت، ظهر العديد من المنظمات العالمية مثل البنك الدولي في عام ١٩٤٥م، ومنظمة اليونسكو ومنظمة اليونيسيف في عام ١٩٤٦م، ومنظمة الصحة العالمية في عام ١٩٤٨م، ووكالة الطاقة الذرية العالمية في عام ١٩٥٧م. ولم ينضم العديد من الدول (ما يقارب ١٩٠) إلى هذه المنظمات دفعة واحدة. وعلى مستوى أكثر صرامة، نشأت مجموعات الأمم المتعددة الإقليمية أو السياسية مثل الاتحاد الأوروبي. إن الضغط الناجم لتبني لغة مشتركة لتسهيل الاتصال في سياقات كهذه، هو أمر مأخوذ في الاعتبار كبديل باهظ الثمن وغير واقعي للترجمة.

وعادة ما يتم اعتماد لغات محددة كلغات رسمية للمنظمات العالمية، فعلى سبيل المثال، اعتمدت الأمم المتحدة خمس لغات رسمية وهي الإنجليزية والفرنسية والاسبانية والروسية والصينية. وتوجد هنالك الآن دعوة لمحاولة تقليل أعداد اللغات المعتمدة في المنظمات العالمية، من أجل تقليل الاعتماد على الترجمة .. وخصوصا في الأمور القانونية. ويمكن ابتلاع نصف ميزانية المنظمات العالمية بسهولة في تكلفة الترجمة. ولكن تقليص ميزانية الترجمة ليس بالعمل السهل كما هو واضح بأنه لا ترغب أي دولة بفكرة تقليل موقف لغتها عالمياً. ويعتبر خيار اللغة دائماً إحدى أكثر القضايا حساسيةً امام أي لجنة. والموقف الشائع، أنه حينما يكون جميع الأعضاء

المشاركين في اجتماع دولي يستخدمون بشكل تلقائي لغة واحدة "لغة عاملة" فإن اللجنة لا تتدخل في إقرار لغة معينة.

وينمو الاعتماد على اللغة الإنجليزية في الاجتماعات حول العالم، ويشعر الأكاديميون، ورجال الأعمال - حول العالم- بالحاجة الملحة لاستخدام اللغة الإنجليزية. وهناك أدلة كثيرة للاعتماد على لغة واحدة في قاعات الدراسة ومكاتب الإدارة، إضافة لآلاف الاتصالات الشخصية التي تجرى يومياً في جميع أنحاء العالم. فالمناقشات عبر الإنترنت بين الأطباء الأكاديميين في السويد وإيطاليا والهند تتم عملياً باللغة الإنجليزية فهي لغة التخاطب المشتركة بينهم. وكمثال آخر، فإن ترتيب مدير شركة ياباني مع رفقائه الألمان والسعوديين في فندق بسنغافورة لإعداد عقد لخطة متعددة الجنسيات، لن يكون مستحيلاً، إذا كان هناك نظام ثلاثي للترجمة، ولكن ذلك أكثر تعقيداً من استخدام الأطراف الثلاثة لنفس اللغة.

إذن هذه الأمثلة تشير إلى نمو مجال الاتصالات الدولية إنما هو نتيجةً لتطور وسيلتين منفصلتين. ولن يتمكن الأطباء من التحدث بثقة مع بعضهم لو لا تطور تقنية الاتصالات الحديثة. ولا يمكن أن تتم الاتصالات الاستثمارية بسهولة في سنغافورة لو لا تطور تقنية النقل الجوي. فوجود هاتين الوسيلتين في القرن العشرين، أكثر من أي شيء آخر، أتاح الجو المناسب لنمو الحاجة إلى لغة عالمية.

أصبح الأشخاص، بكل اختصار، أكثر حركة حسيا، وإلكترونياً، حيث تشير إحصاءات الطيران السنوية إلى التصاعد المستمر في عدد من الأشخاص الذين لديهم الدافع والوسائل الكفيلة بالانتقال عضوياً حول العالم، ومبيعات الفاكسات والموديوم والحاسبات الشخصية تظهر زيادة ملحوظة بين أولئك الذين هم على استعداد لإرسال أفكارهم في كلمات أو صور إلكترونياً .والآن فإنه من البساطة استخدام البريد

الإلكتروني لنسخ رسالة لمئات المواقع حول العالم بشكل متزامن. ومن السهل عليّ إرسال رسالة من منزلي في بلدتي الصغيرة هولهيدي في شمال ويلز، إلى صديق بواشنطن، أو إرسال نفس الرسالة لشخص آخر يسكن على بعد شوارع من منزلي. وهذا في الحقيقة، وفي اعتقادي أنه أسهل . لهذا يتحدث الناس هذه الأيام دائماً عن "القرية العالمية."

ومن المفترض أن تحدث هذه الأنماط، إذا تحدثت مجموعة من الدول سوياً. فالشيء الرائع في التطورات التي حدثت منذ خمسينيات القرن الماضي، بأنها فعالة بدرجة كبيرة أو ضئيلة على كل دول العالم، والعديد من الدول أصبحت مشغولة بهذه التطورات. فليس هناك الآن دولة لا يوجد بها مستوى معين لاستخدام الهاتف، الراديو، التلفزيون والنقل الجوي ومع ذلك فإن وسائل مثل الفاكسات والبريد الإلكتروني والإنترنت متوفرة بقدر أقل.

وينبغي تقدير حجم التطوير وحداثته ففي عام ١٩٤٥م أُنشئت الأمم المتحدة بعضوية ٥١ دولة وفي عام ١٩٥٦م وصل عدد الأعضاء إلى ٨٠ عضواً. فحركات الاستقلال التي بدأت في ذلك الوقت أدت إلى زيادة هائلة في عدد الأعضاء الجدد أثناء العقد التالي، واستمرت هذه العملية إلى عام ١٩٩٠م، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وأصبح عدد الأعضاء ١٩٠دولة عضو في عام ٢٠٠٠م وتقريباً أربعة أضعاف عدد الأعضاء قبل ٥٠ عاماً. وقد لا يكون هذا الاتجاه السائد قد انتهى، حيث بدأ نمو العديد من الحركات القومية في مختلف مناطق العالم.

ليس هناك سوابق تاريخية لدى الإنسان عما حدث للغات، في مثل هذه الظروف من التغير السريع. ولم تحتاج العديد من الدول للتواصل والحديث مع بعضها البعض في الماضي. ولا يوجد في الماضي هذا العدد الكبير من الأشخاص الذين لديهم

الرغبة في السفر إلى العديد من المواقع. ولم يحدث سابقاً وجود ضغوط متزايدة على الموارد التقليدية المتاحة للترجمة والتحليل .ولم يحدث من قبل توافر ضرورة ملحّة لاكتساب مهارة التحدث بلغتين لتخفيف الضغط على المهنيين، كما لم يتوافر عدد كبير وعاجل لتطوير لغة عالمية واحدة .

ما هي المخاطر المحتملة جراء وجود لغة عالمية؟

إن المنافع التي تأتي جراء وجود لغة عالمية لا تحصى، ولكن عدد من المحللين أشاروا إلى بعض المخاطر المحتملة لهذه العملية. ربما تؤدي اللغة العالمية إلى تكوين شريحة مستنيرة وحيدة تتحدث بهذه اللغة فقط، ولديها نظرة رفض أو لا مبالاه باللّغات الأخرى[٣]. فأولئك الذين يستخدمون هذه اللغة (وخاصة أولئك الذين تمثل هذه اللغة لغتهم الأم) سيكونون أكثر قدرة على التفكير والعمل بمعدل عالٍ عند استخدامها وتسخيرها لخدمتهم على حساب أولئك الذين لا يجيدون التحدث بها بطلاقة، وهذا يُبقي الاختلاف اللغوي كالاختلاف بين الثري والفقير. ولربما يؤدي توافر لغة عالمية إلى انخفاض الرغبة في تعلم اللغات الأخرى، وتقلل من فرص تعلمهم .ولربما يسرع توافر لغة عالمية باندثار لغات الأقليات أو (كمخاطر نهائية) يجعل جميع اللغات الأخرى غير ضرورية. يحتاج أي شخص إلى لغة واحدة فقط لمخاطبة شخص آخر، ويُثار في بعض الأحيان أنه "إذا توفرت لغة عالمية، تلقائياً تموت اللغات الأخرى" ويرتبط بهذا الجانب غير المقبول من الانتصار اللغوي، خطر احتفال بعض الناس بنجاح لغة ما على حساب اللغات الأخرى.

---

(٣) حول مناقشة مستفيضة لهذا الموضوع (انظر كتاب "موت اللغة"، ديفيد كرستال ٢٠٠٠م)

ومن المهم التصدي لهذه المخاوف، والاعتراف بأنها منتشرة على نطاق واسع. فليس هناك ندرة في عدد أولئك الذين يستخدمون اللغة الإنجليزية بوصفها لغة أم، ولديهم اقتناع راسخ بضرورة تطور اللغة وفق مفهوم البقاء للأصلح، فإذا كان الأصلح هو اللغة الإنجليزية فهذا ما ينبغي أن يكون، أو الذي يشير إلى المنزلة العالمية الحالية للغة على أنها حدث سعيد. وهناك العديد من الذين يعتقدون أن تعلم اللغة مضيعة للوقت. كما أن هناك العديد من الذين لا يشعرون بخطأ لرؤية عالم وحيد اللغة ويعدون ذلك شيئاً جميلاً. ويمثل ذلك للبعض عالماً من الوحدة والسلام، مع اختفاء كل المحاذير الخاطئة، مع تنامي الأمل بمساندة الحركات المساندة لوجود لغة تخاطُب عالمية (مثل الاسبيروانتو).وللبعض الآخر، فمثل هذا العالم سيكون مثالاً للعودة للبراءة والفطرة، والتي لا بد أنها كانت سائدة بين الناس في الأيام التي سبقت إنشاء برج بابل.

ومن الصعب التفاعل مع المحاذير الافتراضية جداً، أو في غياب الدليل الملموس، لتحديد مدى القدرة على تخفيفها أو التغلب عليها. فالنقطة الأخيرة يمكن رفضها بشكل سريع وتام: حيث استعمال لغة موحدة من قبل مجموعة لا تضمن التناغم الاجتماعي أو الفهم المتبادل، كما حدث مراراً في التاريخ العالمي (ومثال ذلك الحرب الأهلية الأمريكية، الحرب الأهلية الإسبانية، الحرب الفيتنامية ويوغسلافيا السابقة، وأيرلندا الشمالية المعاصرة). وقد لا يتسبب وجود أكثر من لغة في زيادة النزاعات الإقليمية، وهناك أمثلة كثيرة ناجحة للتعايش السلمي في ظل وجود أكثر من لغة (ومثال ذلك فلندا، سنغافورة وسويسرا). أما الحالات الأخرى، فينبغي أن تؤخذ بكل هدوء، لتقدير المنظور البديل. فالحجج المذكورة تُعنى باللغة الإنجليزية ولكن يمكن استخدامها لأي لغة كانت في تطورها للغةٍ عالمية.

- **القوة اللغوية:** تكمن القوة اللغوية في قوة أولئك الذين يتحدثون بلغة عالمية بوصفها لغة أم؛ هل هم تلقائياً في موقع أقوى مقارنة بأولئك الذين يتعلمونها بوصفها لغة رسمية أو أجنبية؟ إن المخاطرة قائمة وحقيقية في مثل هذا الوضع؛ فمن المحتمل، على سبيل المثال، إن العلماء الذين لا تعد اللغة الإنجليزية اللغة الأم بالنسبة لهم يأخذون وقتاً أطول لاستيعاب التقارير المكتوبة باللغة الإنجليزية بالمقارنة مع أولئك الذين لغتهم الأم هي اللغة الإنجليزية، وبناءً عليه يتاح لهم وقت أقل لتنفيذ أعمالهم الخلاّقة والمبدعة. ومن المحتمل ألاّ تعير المجموعة الدولية اهتماماً بالأعمال التي تكتب بلغة غير اللغة الإنجليزية. فمن المحتمل أن يجد المديرون القياديين الذين لا يتحدثون اللغة الإنجليزية بوصفها لغة أم، والذين يعملون لدى شركات تستخدم اللغة الإنجليزية في مناطق عديدة من العالم كأوروبا وإفريقيا، يجدون أنفسهم في موقع أضعف مقارنة بزملائهم الذين يستخدمون اللغة الإنجليزية بوصفها لغة أم، خصوصاً في الاجتماعات التي تتضمن جلسات مناقشات غير رسمية .وهناك دليل مادي لحدوث مثل هذه الأشياء.

وعلى أية حال، إذا انصب اهتمام خاص بتعلم اللغة، فإن المحاذير تقل بدرجة مثيرة. فإذا تم تعلم لغة عالمية مبكراً، منذ بداية تلقي الأطفال تعليمهم المدرسي، وإذا استمر هذا التعلم وبإمكانات جيدة، فإن القدرة اللغوية لديهم ستكون جيدة وقوية وحقيقية ويصبحون أشخاصاً يجيدون التخاطب بلغتين بطريقة لا يمكن تمييزها من أولئك الذين يتحدثون اللغة الثانية منذ بدء الكلام بعد ميلادهم. وهناك كمٌ هائلٌ من (إذا) كان لها مقابل مادي عالي، ولذا لا توجد مفاجآت في أن عدد من الذين لهم المقدرة المشهودة في التخاطب بلغتين محدود من غير المواطنين لأي لغة، ولكن حقيقة يمكن تحقيق ذلك

(كما ثبت ذلك مراراً لمتحدثي اللغة الإنجليزية من دول مثل الدنمارك والسويد وهولندا) مما يشير إلى عدم وجود شيء لا يمكن التغلب عليه فيما يتعلق بمحاذير تعلم اللغة.

ومن المهم أن نشير في هذه النقطة إلى فكرة أن الأطفال قد ولدوا وهم مؤهلون للتحدث بأكثر من لغة، حيث ينمو ثلثي أطفال العالم في بيئة ثنائية اللغة، ويطورون قدرةً على ذلك. وهناك فطرة طبيعية لاستيعاب لغة أخرى إذا تعرضوا لها بانتظام، مما يثير غيرة البالغين. ويبدو أن هذه القدرة تضمحل وتندثر عندما يصل الأطفال إلى مرحلة المراهقة، وقد دار نقاش أكاديمي مستفيض لمعرفة لماذا يحدث ذلك (سؤال عن الفترة الحرجة). هناك اتفاق واسع الانتشار، هو إذا أردنا أخذ تعلم اللغة الأجنبية مأخذ الجد، فأحد المبادئ الأساسية (البكور هو الأفضل). ومتى ما أخذت هذه المهمة بجدية، ويقصد هنا امتلاك اللغة العالمية، تختفي حجة الطبقة المستنيرة.

- **الاكتفاء اللغوي:** هل تزيل اللغة العالمية رغبة البالغين في تعلم اللغات الأخرى؟ هناك أيضاً مشكلة تظهر بشكل خفيف، حيث توجد مؤشرات واضحة للميل نحو الاكتفاء اللغوي، وهناك اعتقاد شائع، لدى السائح البريطاني والأمريكي الذين يسافرون حول العالم معتقدين أن كل شخص يتحدث اللغة الإنجليزية، ويعتبرون ذلك خطأ المواطنين الأصليين في المناطق التي يقصدونها بأنه يتوجب عليهم هم بأن يتحدثون بالإنجليزية.

إن الفكرة الشائعة لدى السائح الإنجليزي أن يسأل باستمرار الجرسون الأجنبي أن يحضر له شاي بصوت عالٍ " يجب على الجرسون أن يقرأ الشفاه فقط"، لتوضيح مقصده الذي يكون أقرب للحقيقة المقنعة. يبدو أن هناك قلة متأصلة واسعة الانتشار لعدم الرغبة في تعلم لغات أخرى، يغذيها جزئياً عدم توفر المال والفرص المتاحة،

ولكن أيضاً بعدم الرغبة وهذا قد يعود إلى الحضور المتنامي للغة الإنجليزية بوصفها بوصفها لغة عالمية.

ومن المهم تقدير تعاملنا هنا مع تساؤلات عن المواقف أو الحالة الذهنية بدلاً من تساؤلات عن القدرة على التعلم على الرغم من أن الأخير هو الذي يستشهد به باستمرار لتفسير هذه التساؤلات مثل: " أنا لست جيداً في تعلم اللغات". لذا من المحتمل أن يكون الاعتزاز الأكثر تداولاً لعدم بذل مجهود لاكتساب مستوى مقبول للغة جيدة". وعموماً هذا استصغار للذات ناشئ عن تجربة غير موفقة لتعلم اللغة في المدرسة. وإن المتحدث ربما تذكّر النتائج الضعيفة للإمتحانات المدرسية التي قد تعكس ليس أكثر من طريق غير موفقة للتعلم أو لطريقة تواصل فاشلة للعلاقة بين المعلم والطلاب في سن المراهقة. "أنا لم أتواصل أبداً مع معلم اللغة الفرنسية" تعليق مثالي آخر. لكن هذه التعليقات لا تمنع الناس من القول إن البريطانيين والأمريكيين .. الخ غير جيدين جداً في تعلم اللغات.

وحاليا، توجد مؤشرات واضحة لنمو الوعي ضمن الجماعات الناطقة باللغة الإنجليزية للانسلاخ بعيداً عن التحيّز التقليدي للغة تخاطب واحدة. في أوقات الأزمات الاقتصادية يعتمد النجاح في رفع معدل الصادرات وجذب الاستثمار الأجنبي على عوامل غير منظورة، وحساسية لغة التخاطب في دولة الشراكة الاقتصادية المحتملة مؤثرة بدرجة كبيرة. فعلى الأقل على مستويات الاستثمار والصناعة، العديد من الشركات بدأت ببذل جهود جديدة في هذا الصدد .ولكن على المستوى القاعدي للسياحة توجد أيضاً مؤشرات لاحترام متنامي للثقافات الأخرى واستعداد متعاظم للارتباط بتعلم اللغات الأجنبية. فتتغير مواقف اللغة باستمرار، ويكتشف أكثر الناس، ما يسرهم، وأنهم لم يكونوا خاسرين بتعلمهم لغة أخرى. وعلى الأخص، تؤكد

البيانات التي يلقيها السياسيون والتنفيذيون المؤثرون على ضرورة وأهمية تعلم لغة أخرى. ومثال جيد على ذلك الخطاب الذي ألقاه عام ١٩٩٦م الأمين العام السابق للكومنولث سير سريداث رامبفال (Sir Sridath Ramphal).

كان عنوان مقالة رامفال: "إن أي اللغة العالمية: الفرص، التحديات، والمسؤليات" يشير إلى طريقة تفكير تصحيحة .. غير أن النص التالي لرامفال يمكن أن يكون يستخدم ضده أيضا:

> "من السهل جداً أن تجد طريقك للتفاهم مع العالم كلة إذا كانت اللغة الإنجليزية هي لغتك الأم، ومن هنا فإننا أصبحنا كسولين جد في تعلم اللغات الأخرى؛ لأنه يتوجب علينا بذل مجهود أكثر. وقد نعتبر اللغة الإنجليزية لغة العالم ولكنها ليست لغة العالم الوحيدة، فإذا أردنا ان نكون جيرانا جيدين على المستوى العالمي، فيجب علينا ألاّ نهمل لغات العالم الأخرى – ونعمل جاهدين على الاختلاط بهم لنكون نحن وهم أصدقاء."(٤)

وبقي لنا أن نرى أن الصداقة الأكيده تترك أثراً جيداً علي المدى الطويل. ومن المفيد، الاطلاع على إحصاءات مقارنه عن تعليم لغات مختلفة، مثل التقرير التجاري الأوربي الذي نشره جرانت ثورنتن (Grant Thornton) عام ١٩٩٦م، والذي يشير إلى أن ٩٠٪ من التجارة في بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج واليونان تتم بالتفاوض بلغات أخرى (غير الإنجليزية)، وبشكل تنفيذي. أما في بريطانيا كان لدى ٣٨٪ من شركاتها شخص واحد يقوم بالتفاوض بلغة غير الإنجليزية. وفي عام ٢٠٠٢م، بقيت الاحصائية الأوروبية الأعلى في التقرير لكنها انخفضت بنسبه ٢٩٪ في بريطانيا. كذلك أشار مركز أبحاث قاعدة المملكة المتحدة للمعلومات عن دراسة اللغات إلى أن ثلث التجار المصدرين يفقدون فرص تجاريه؛ بسبب ضعف مهاراتهم اللغوية، وأن الشركات البريطانية التي لا يوجد فيها لغات متعددة تواجه صعوبات جمة تعيق محاولاتها

---

(٤) Ramphal (1996)

للتوسع والنمو في مناطق جديدة من العالم مثل شرق آسيا، جنوب أمريكا، ومناطق شرق أوربا حيث يتقلص وجود اللغة الإنجليزية هناك نسبيا..

ولكن بدأنا بملاحظه المشكلة، حيث بدأت المدارس الاسترالية بتدريس اللغة اليابانية كأول لغة أجنبيه. أما في الولايات المتحدة وبريطانيا فبدأوا بالتركيز على اللغة الأسبانية (مما يدل علي استخدامها بوصفها لغة أولى) ولكن أمامنا طريق طويل في العالم من حيث الاقتصاد والنقاشات الأخرى حول وجوب إقناع متحدثي الإنجليزية كلياً بضرورة ترك للتعصب اللغوي .

موت اللغة: هل يساعد انتشار لغة ما في العالم على اختفاء اللغات الأخرى؟ هل يتسبب الانتشار في قتل اللغة؟ كي نجيب علي هذا السؤال، لابد أولا أن يكون لدينا منظور عام ؛ فعمليه فقد اللغة وعملية السيطرة اللغوية هي عمليات معروفه من خلال التاريخ اللغوي، ومتواجدة بشكل مستقل منذ انبثاق اللغة العالمية. فلا أحد يعلم كم من اللغات انقرضت منذ أن أصبح الإنسان قادر علي الكلام ولكن لابد أن تكون منذ آلاف السنين. وفي كثير من هذه الحالات، قد تسبب هذا الانقراض من قبل مجموعه دينيه لديها فكره عن السيطرة الاجتماعية وانتقاء لغتها. ولا يزال الموقف مستمر ، فالأمر يناقش في عجله تامة ؛لأن اللغات الأصلية المنخفضة نسبتها ستُفقد، خاصة في جنوب أمريكا والبرازيل وأستراليا وأندونيسيا وأجزاء أخرى من أفريقيا. فعلى الأقل سينقرض نصف بالمئة من ٦٠٠٠ لغة في العالم وتعرف باللغات الحية خلال القرن القادم.

ويعتبر هذا الوضع – وبكل تأكيد – مأساة اجتماعية وفكرية. فعندما تنقرض اللغة، تفقد الكثير. وخاصة عندما تكون هناك لغات لم تكتب أبداً، أو لغات قد تم كتابتها حديثا، فاللغة هي مستودع لتاريخ المجتمعات وهويتها. الشهادة الشفاهية علي

شكل قصص، أغاني أو عادات أو مقولات والعديد من التدريبات الأخرى تمنحنا نظرة نادرة لعالمنا وكم هائل من الأدب. فهي تراث لبقية الإنسانية. فعندما تفقدها، فلا تستطيع إعادتها مره أخرى .فالجدل مشابه وله علاقة باستخدامه للتحدث مع أنواع أخرى في بيئتنا. التوثيق والممارسة وبناء اللغة تعتبر أولوية، وكانت فرصة جيدة لنرى في التسعينيات عدد من المنظمات العالمية تشكلوا معلنين اللغات المنقرضة لأجيالهم بأكبر قدر ممكن من اللغات.

ولاشك أن انبثاق لغة عالمية واحدة لا بد أن يخلق مجموعة من العلاقات الحرجة. وهنا يمكن أن ينظر إلى نضال لغة "سيربيان" في ألمانيا او "جلاشيان" في أسبانيا، حيث إن لهاتين اللغتين علاقة بتاريخ السياسات والاقتصاد المحلي، والسيطرة الإقليمية لكل من ألمانيا وأسبانيا على التوالي على الرغم من عدم وجود علاقة مباشره بين ألمانيا وأسبانيا في هذا الخصوص. هل من السهل اعتبار اللغة الإنجليزية لغة عالمية قد تؤثر مستقبلياً علي اللغات الأخرى (أو لغات الأقليات) بشكل مباشر ؟. يحدث هذا التأثير فقط إذا أصبحت اللغة الإنجليزية هي اللغة المسيطرة الأولي لهذه المناطق، كما في جنوب امريكا وأستراليا ومناطق صغيره في بريطانيا. وقد تأثر التواصل اللغوي في هذه المناطق منذ وقت مبكر؛ بسبب الغزو، وكان تأثير ذلك علي التراث اللغوي المحلي أشبه بكارثة. وفي الوقت الحديث، فإن انتشار اللغة الإنجليزية بوصفها لغة عالميه له انعكاسات فعاله تحفز استجابة قويه لدعم اللغات المحلية. لقد تغيرت الأزمنه، وأصبحت التحركات لنيل حقوق اتقان اللغة تلعب دورا مهماً في تلك الدول. ولننظر مثلا إلى ارتباط لغة الماوري في نيوزيلندا مع اللغة الأصلية لأستراليا واللغات الهندية في كندا والولايات المتحدة. وعلى الرغم من تأخرها في أمثلة أخرى مثل لغة ويلز، فقد تباطأ انقراض اللغة، أو توقف تماما (مثل لغة ويلز).

إن وجود تحركات جادة لدعم الأقليات اللغوية، يرتبط بالقومية بشكل عام، ويمثل أهميه حقيقية عن طبيعة اللغة بوجه عام. وتعتبر الحاجة الي التواصل المشترك جزء من الجدال حول دعم عالميه اللغة. وهذا يمثل جانباً واحداً من القصة، أما الجانب الآخر، فيعود إلى رغبة المجتمعات- والناس يقللون من شأن دور الهوية عندما يعبرون عن قلقهم عن موت أو انقراض اللغة. اللغة هي وسيله رئيسة تظهر أصل مجيئنا وتميز مجموعه عامه إلى أخرى ومن حول جميع إنحاء العالم نري دلائل تظهر الاصل اللغوي بدلا من التحول اللغوي، فكثير من عامه البلاد في يوغوسلافيا استخدموا لغه عاميه منذ عقود. وتعرف بالسيربو كرواتيه. و لكن منذ الحرب الأهليه في أوائل التسعينيات، أشاروا الصرب إلى لغتهم بلغه صربيه والكرواتيه للكرواتيه ومع كل مجتمع يلفت الانتباه اللغوي من ملامح مميزه. مثال مشابه متواجد بإسكندنيفيا حيث السويد والنرويج والدنمرك مشتركون في وضوح اللغة ولكنهما كل منهم لديه لغة مختلفة.

هناك جدل حول الحاجة إلى هوية قوميه أو هوية ثقافيه وهو ما يتعارض مع الحاجه إلى التواصل اللغوي المشترك. ولكن هذا خطأ، فهناك إمكانيه كاملة لتطوير بحيث يكون التواصل اللغوي والهوية متواجدان معاً. هذه الحالة هي الحالة المعروفة لثنائية اللغة، ولكن تثنيه اللغة حيث تكون أحداهما لغة عالميه. تتيح التواصل إلى المجتمع العالمي، والأخرى تعتبر لغة إقليميه تتيح التواصل إلى مجتمع محلي. كلا الوظيفتين تستجيبان إلى احتياجات مختلفة بشكل كامل. وهذا لأن هذه الوظائف مختلفة تماما بحيث يستمر التغير اللغوي لعالمي في تواجده في عالم متحد بلغة معروفة.

كل هذا لا ينكر تأثير انبثاق لغة عالميه في بنيه لغات أخرى، خاصة عن طريق إعطائهم مصدراً من الكلمات التي تستخدم من قبل لغات أخرى. وتعد التأثيرات

اللغوية مقبولة أو مرفوضة مثال، في سنوات حديثة إحدى أقوى اللغات كالفرنسية، حاولت حماية نفسها بالقانون ضد ما يعرف بتأثير اللغة الإنجليزية. في نصوص رسميه، يعتبر غير قانوني اذا استخدمت كلمه باللغة الإنجليزية عندما يوجد مقابل لها بالفرنسية. على الرغم من الاستخدام قد يقود إلى دعم عام منتشر. فانظر إلى المعلقون من دول مختلفة عبروا أيضا عن قلقهم المفردات الإنجليزية خاصة الأمريكية منها أن تنشر الخلل لبرامجها التليفزيونية .تحول الجدل إلى قوة عاطفية حقيقية.

إن العلاقة بين الانتشار العالمي للغة الإنجليزية وأثرها على لغات أخرى منجذبة إليها زادت النقاش في التسعينيات. الحقيقة إن من المحتمل أن تظهر العلاقة بين معدل استخدام اللغة الإنجليزية وأقلية اللغات الأخرى قادت بعض المراقبين إلى اعادة التأكد من النتيجة أن هناك رابطاً بسيطاً بين الظاهرتين، متجاهله حقيقة فقدان اللغة الإنجليزية بعض مصطلحاتها اللغوية في أجزاء من العالم بينما كانت اللغة الإنجليزية ليس لها وجود معروف به، كاللاتينية والروسية والصينية. هناك عمليه جذرية عميقة من العولمة يبدو أنها بالعمل اليوم، تتجاوز مواقف المستقلة للغة. ونظرة الخطأ التاريخي نحو لأمبراليه اللغوية. فهي خاصة تجهل حقيقة الدول لدى اللغات القوية التي تبدو تحت الضغط لتبني اللغة الإنجليزية. وجاءت بعض الهجمات الشرسة علي اللغة الإنجليزية من دول ليس لديها تراث مستعمر .فعندما تشعر لغات أخرى مسيطرة تسيطر عليها لغة أخرى فهناك دائما شيء أكبر من التفاهم في قوه العلاقات متورط .

إن العناصر الأخرى تحتوي على الرغبة بتملك صوت في العلاقات الدولية وقيمه امتلاك لغات متعددة لجذب أسواق التبادل التجارية - وكلها تدعم تبني الاهتمام باللغة الإنجليزية. ويتمثل ذلك في ضرورة وجود لغة واضحة الملامح تشبه الآلة أو الماكينة التي تمكن الناس من تحقيق أهدافهم . وتستمر اللغات المحلية في تأدية

مجموعه من الوظائف المهمة (أي التعبير عن الهوية المحلية)، بينما تظهر اللغة الإنجليزية بوصفها كوسيلة أوليه لتحقيق الانتشار العالمي. وتعرف هذه المحاولة بالتراث المستعمر، بوصفها كحقيقة تاريخيه ولكن التركيز الآن يكمن الاعتماد على مصادر القوه، التخصيص الوظيفي. وهو نموذج يرى اللغة الإنجليزية كلاعب مركزي في تقويه الخضوع والتهميش، وبعد الفجوة بين الذين يملكون والذين لا يملكون. والذين يعارضون لهذه المكانة تم ترحيلهم "بما يعرف بالسذاجة الفكرية المتحررة."

إذا كان العمل نحو تحقيق الهدف المذكور سابقاً يعتبر من المثالية فلا مانع أن يكون المرء مثالياً. وعلى أية حال لا يعتبر الأمر إطلاقاً للحرية، نظراً لكمية الوقت والجهد والمال والذي كرس في السنوات الأخيرة لتنشيط اللغة والأمور المتعلقة بها. وفي الحقيقة، يعتبر التقدم الذي تم إحرازه صغيراً جداً مقارنة مع الآثار الوخيمة للعولمة على التنوع العالمي .ولكن إلقاء اللوم على اللغة الإنجليزية وتجاهل القضايا الاقتصادية الأساسية وذات العلاقة بالمسألة، تعتبر كما وضعها معلقان بقولهم: الهجوم على الهدف الخاطئ للتساهل في التخريب اللغوي. ومن المرجح أن تأتي الحلول من مجال السياسة الاقتصادية وليس من جانب اللغة. وكما استنتج ليساندروا:"إذا كانت اللغة الإنجليزية تسهل عملية التملك والخسارة العالمية فإنه بالإمكان أن تعكس وتستخدم لتسهيل عملية الكسب للجميع."

هل يمكن لأي شيء الوقوف أمام عالمية اللغة؟

يجب أن ينظر إلى أي نقاش حول أنتشار أي لغة عالمية في ظل السياق السياسي للوضع العالمي ككل. ففي يناير من عام ١٩٩٥م نشرت لجنة الحكم العالمي تقريرا

بعنوان "الحي العالمي" وبعد سنة من ذلك علق الرئيس المشارك سريداث رامفال (في الورقة المشار إليها آنفا) قائلاً:

"لقد كان هناك وللجزء الأكبر أناس سعداء بأن التقرير طرح القضية الرئيسة للمجتمع العالمي ولكن لاموا لعدم قيامنا بالأمر الذي يرونه منطقياً وهو الدعوة للغة عالمية. ولم يستطيعوا أن يروا كيف أن الحي العالمي والمجتمع العالمي والذي يعترفون به يمكن أن يعمل ويشكل فعال بدون لغة عالمية .ولا يتوقع أن يكون الحي الذي يتكلم بلغات كثيرة متماسك أو حتى متعاون ... ولقد كانوا على حق من ناحية واحدة ولكنهم كانوا خاطئين بمعنى أن لدينا لغة عالمية. وهي ليست لغة الإمبريالية ولكنها اللغة التي رأيناها تتطور عبر التاريخ والذي لا يستوجب أن نفخر به دائماً ولكن الإرث الذي يجب أن نستخدمه في التأثير النافع".

وقد أضاف في موضع أخر بأنه: "ليس هناك تراجع من كون اللغة الإنجليزية لغة عالمية ولا تراجع من عالم ناطق باللغة الإنجليزية".و تثير البيانات السياسية القوية بهذا الشأن سؤالاً وهو هل يمكن لأي شيء إيقاف لغة ما بعد تحقيقها لمكانة عالمية؟ ويجب ن يكون الجواب المختصر نعم. إذا كانت هيمنة اللغة مسألة تأثير سياسي واقتصادي فإنه يمكن أن يكون للثورة في ميزان القوى العالمية دور في اختيار اللغة العالمية. ولا يوجد هنالك نقص في كتب الخيال العلمي والتي تتنبأ بسيناريو في المستقبل يتمثل بكون اللغة العالمية لغة صينية أو عربية أو حتى لغة المخلوقات الفضائية وذلك بعد وقوع كارثة. ولكن لوقوع مثل هذا السيناريو فإنه يجب في الواقع أن تكون الثورة كارثية. وإنه لمن الصعب أن تخمن بعقلانية ما الذي سوف يحدث. وإنه من غير المحتمل أن تقوم الثورات الصغيرة في النظام العالمي بتأثير كبير؛ نظراً لكون اللغة الإنجليزية منتشرة بكثرة بحيث أنها لم تعد حكراً على أمة محددة.

و أكثر السيناريوهات قبولاً هو أن تظهر طريقة جديدة للتواصل والتي تلغي الحاجة للغة العالمية. والمرشح الأكبر هنا هو الترجمة الآلية. وإذا استمرت سرعة التطور بهذا المجال كما هو الحال في العقد الماضي فإن هنالك إمكانية كبيرة بأنه في غضون

الجيلين القادمين سيصبح أمراً روتينياً أن يقوم الناس بالتواصل بين بعضهم باستخدام لغتهم الأولى بشكل مباشر وبواسطة حاسوب يعمل كوسيط بينهم.

لقد ظهرت هذه الحالة بدرجة محدودة على الإنترنت وتتمثل ببعض الشركات التي تعرض حالياً خدمات الترجمة بين بعض اللغات. أي أن المرسل يكتب رسالة بلغة "أ" ومن ثم تظهر على شاشة المستلم باللغة "ب". وتعتبر الحاجة لتحرير وتعديل الترجمة امراً مهما، وعلى أية حال تعتبر برامج الترجمة حالياً محدودة جداً في القدرة على التعامل مع التعابير الضمنية والأسلوبية ومن النواحي اللغوية الأخرى. وتعتبر الترجمة الآلية بعيدة كل البعد على أن تكون بديلة عن نظيرتها البشرية، وبالرغم من التقدم الممتاز في تمييز الأصوات والتوليف والتي حدثت في السنوات الأخيرة إلا أن التطور في الترجمة الفورية الأوتوماتيكية ما زال بدائي، ويعتبر مفهوم (سمكة بابل) وهي الجهاز الذي يوضع بداخل الأذن والذي تجعل كل لغات الكون مفهومة، أمراً مثيراً.

و بدون شك سوف تتحسن جودة وسرعة الترجمة الآلية الفورية بشكل كبير في الخمسة وعشرون إلى الخمسون عام القادمة ,ولكن سوف تأخذ وقت أطول بكثير قبل أن يصبح هذا الوسط واسع الانتشار بشكل عالمي ,ويكون في متناول الجميع من الناحية الاقتصادية. ويقف هذا كتهديد أمام التوفر الحالي وطلب لغة عالمية. وفي أثناء هذا الإطار الزمني تقترح كل الأدلة أن مكانة اللغة الإنجليزية بوصفها لغة عالمية ستصبح أقوى. وبحلول الوقت الذي تنضج في الترجمة الآلية وتصبح ذات شعبية سوف تكون اللغة الإنجليزية في مكانة حصينة. وما سيحدث سيكون جدير بالاهتمام سواءً كان حضور لغة عالمية تزيل الحاجة لخدمات الترجمة أو قيام الترجمة الآلية بالحد من كلفة تعلم اللغة العالمية وللتي سوف تجعل الأخيرة عقيمة. وسوف تكون معركة مثيرة في المائة عام القادمة.

فترة زمنية حرجة

يستحيل أن نتوقع في السابق- و بثقة تامة - ظهور لغة عالمية، ولم يكن هناك سوابق لهذا النوع من النمو اللغوي ما عدا على مقياس صغير جداً. وتعتبر السرعة التي ظهر فيها سيناريو اللغة العالمية أمراً رائعاً؛ فخلال مالا يزيد عن جيل واحد انتقلنا من وجود لغة عالمية كأمر نظري إلى تحولها لحقيقة واضحة.

ولم تجد أي حكومة حتى الآن أي إمكانية للتخطيط بشكل واثق في مثل هذه الظروف، بيد أنه من الضروري أن تبقى اللغات كعنصر حاضن للهوية مع التأكيد على الاستفادة من اللغة العالمية الصاعدة والتي ينظر إليها وعلى نطاق واسع على أنها لغة الفرصة والتمكن. ويتطلب كلا المبدأين مصادر هائلة. ومن المثير للسخرية أن القضية وصلت لذروتها في وقت يصعب للوضع المالي الدولي تحمله.

و عند وضع القرارات الأساسية حول الأولويات، فإن صناع القرار يجب أن يأخذوا في الاعتبار بأننا قد نقترب من لحظة حاسمة في تاريخ الإنسان اللغوي.وإنه من المحتمل أن تظهر لغة عالمية مرة واحدة. وبالتأكيد وكما شاهدنا إنه بعد تأسس مثل هذه اللغة فإنه يصعب تقليصها، إذ إنها تحتاج لثورة لاستبدالها. وقد كان الربع الأخير من القرن العشرين هو الوقت الحاسم في ظهور هذه اللغة العالمية .

و وفقا للأسباب التي سنستعرضها في الفصول الثلاثة القادمة، فإن كل الإشارات تؤكد أن اللغة العالمية هي اللغة الإنجليزية. ولكن ما يزال هنالك شوط طويل قبل أن تصبح اللغة العالمية حقيقة عالمية. وعلى الرغم من النمو الملحوظ في استخدام اللغة الإنجليزية إلا أنه على الأقل ثلثي سكان العالم لا يستخدمونها. في بعض أجزاء العالم (على سبيل المثال أغلب ولايات الاتحاد السوفيتي السابق) ما يزال وجود اللغة الإنجليزية محدودا جداً. وفي بعض الدول ازدادت الأسباب التي تكرس إبقاء اللغات الأخرى (كاستخدام الفرنسية في عدة بلدان أفريقية). وعلى الرغم من الاتجاه العام ما

زالت هناك العديد من المجابهات اللغوية التي لم تحل. ويجب على الحكومات التي تتمنى أن تلعب دوراً في التأثير على المستقبل اللغوي للعالم، أن تتأمل بعناية عند اتخاذها لقرارات سياسية وبناء مؤسسات التخطيط اللغوي.

و لا شك أن الحكومات الآن في حاجة لتبني وجهات نظر بعيدة المدى أكثر من أي وقت سبق في التاريخ اللغوي سواءً كانت مصلحتهم في دعم انتشار اللغة الإنجليزية أو في تطوير استخدام لغات أخرى في مجتمعهم (أو كلا الأمرين). وإذا فوتوا هذه الفرصة قد لا تسنح لهم فرصة أخرى.